ناس في الليل

بقلم : ضياء الشرقاوى

أدخل يده بين زرايز الجاكتة ٠٠ ودلفت أصابعه دون أن تتحسس طريقها الى جيب سميحه ٠ ٠انها تعرف طريقها تماما الى هذا الجيب ولم تخطىء مرة واحدة ٠٠٠ فوق القلب مباشرةوالتفت حول ورقة مطوية راقدة فى ركنها بهدوء ٠٠ ونشرها امام عينيه واخذ يتفحص الكلمات الغريبة التى لايعرف منها شيئا ٠٠ أفى هذه الكلمات القليلة الشفاء لسميحة من مرضها الطويل ؟ ٠ ٠وتداخلت الحروف أمام عينيه وتشابكت وبرز من بينها وجه الطبيب الشاب وهو يقول له :

اشتر هذا الدواء بسرعة ٠٠ واعطها جرعة كل ساعتين ٠

قال له بتردد :

ـ أهذا الدواء غال يا سيدى ؟

قال الطبيب الشاب :

لا ٠٠ لن يزيد عن جنيه ٠

تمتم ؟

ـ جنيه ٠٠ جنيه ٠

لطمته هذ ه الكلمات ٠٠ وود لو يقول له : ألا تكتب لنا دواء رخيصا شيئا ما بدل هذا الدواء ياسيدى ؟

وهاهو شهر كامل ينقضى ولا يستطيع أن يشترى هذا الدواء ٠٠ الورقة البيضاء راقدة وسط ستة وثلاثين قرشا فى قاع الجيب ٠٠ هذا الشهر ملعون جمد الناس الى جوار مدافئهم أو فى فراشهم ٠٠ لا زبائن ٠٠ وسميحة لا تمرض الا فى هذا الشهر الملعون الشحيح ٠٠ والميدان فسيح كئيب تضيع حدوده فى الظلام ٠٠ وثلاث عربات فقط يحلقون حول بعض ، اثنتان صغيرتان ٠٠ وواحدة كارهة يلوح عليها عليها العز والثراء ٠٠ انه لا يأمل كثيرا فى العربتين الصغيرتين والعربة الكبيرة لن تعطيه أقل من خمسة قروش ٠٠ خمسة قروش ٠٠ العربتان الصغيرتان قرشان أو ثلاثة ٠ ٠ما يأتى منهم ؟ سيضعه فى جيب سميحة ٠ ٠ ضرورى ٠٠ تحسس الجيوب الاخرى ٠٠ جيبه خال لم يضع فيه شيئا تماما فليؤجل موضوع رتق الحذاء ٠ وهذا جيب الايجار فيه قروش قليلة٠٠ وجيب زوجته ٠٠ وجيب الاكل ٠٠ وجيب محمد ٠٠ جيوب كثيرة واسعة خالية الوفاض وثنى الورقة برفق ٠٠ وادخل يده بين زرايز الجاكتة ٠ ٠ودلفت أصابعه دون أن تتحسس طريقها الى جيب سميحة حيث تركت الورقة فى القاع ٠٠ وانتشله من تفكيره صوت عربة من العربتين

الصغيرتين.. واندفع نحوها يلوح بيده ويتقدمها .. وعندما حاذته .. اسقط الرجل فيده قرشين .. ومرقت تقتحم الظلام .. رفع الحارس عم بيومى القرشين الى شفتيه وقبلهما بامتنان .. وامتدت يده بهما بين الزرابر ودلفت الى جيب سميحة .. وخيل اليه ان الكلمات تجمعت وبرز من بينها وجه الطبيب الذى اخذ يحصى النقود .. فتمتم عم بيومى كأنه يحادثه ويطمئنه :

وقل العربة الصغيرة الثانية قرشين لاخرين .. والعربة الكبيرة خمسة قروش .. يكون الحساب خمسة واربعين قرشا .. هانت .

وأحس بالارتياح . .خيل اليه انه لمح ابتسامة على وجه سميحة .. أخذت الرياح الباردة تجوب الميدان طولاوعرضا مثل الكلاب الجائعة المجنونة تطارد بعضها بعضا . .لقد صارت اكثر من العربات هذه الايام .. والرياح تجوب الميدان دون أن تدفع شيئا .. ماذا سيقبض من الرياح ؟ هل هى تعرف أن وراءه فى البيت ابنة مريضة تحتاج الدواء . .وفى قدميه حذاء يحتاج الرتق .. وسكنا يحتاج الايجار .. وولدا وزوجة .. الرياح لاتعرف شيئا .. ولا تريد أن تعرف شيئا .. حتى ولا تريد أن تتركه واقفا فى مكانه وحيدا فى أمان الله .. بل تصفعه وتعابثه .. وتجذب ذيل جلبابه .. وشق طريقه الى العربة الصغيرة وجلس الى جانبها يحتمى بها من عبث الرياح . .وسميحة ترمقه بعينيها الذابلتين فى حنان . . ود لو أغلقتهما ونامت فلماذا تستيقظ معه هى الاخرى حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل .. التؤنسه وتبدد وحشته ؟ فلتنامى .. معى العربتان تؤنسان وحشتى .. يومان أو ثلاثة وساشترى لك الدواء .. وتستردين صحتك وعافيتك وتلعبين مع الاولاد فى الحارة كما كنت تلعبين .. واسمع صوتك ياتينى من بعيد .. وتتعلقين بعنقى .. واضمك الى صدرى.. اليس لهذا الليل من نهاية ؟ .. اين صاحبا هاتين العربتين ؟.. هل ناما فى الملهى . . لابد انهما قد ناما هناك .. فكثيرا ما ينامون فى اماكنهم من فرط السكر وينسون أنفسهم ويتركونني ملقى بجوار عرباتهم . . والقى نظرة الى الملهى .. الموسيقى الصاخبة الضارية تغفو .. والانوار تخفت .. والطريق الى البيت طويل . .ساعة كاملة حتى يصل اليه .. ساعة كاملة .. وتخيل صاحب العربة الصغيرة يقول له :

أين تسكن أيها الرجل ؟

ـ فى السيدة عائشة .

ـ ياه . .انها بعيدة جدا .. والدنيا ليل .. تعال معى لأوصلك .

وتمرق العربة فى الطرق الكثيرة لايهمها الوحل ولا البرد .. كل شيء غرق فى النوم .. من هنا يا سيدى .. على طول .. الشارع القادم .. فى آخره .. فى ماذا تفكر ايها الرجل ؟ .. ان ابنتى سميحة مريضة منذ شهر .. انها بنت حلوة ستحبها ان رأيتها .. الم تعرضها على طبيب ؟

ـ نعم .. نعم يا سيدى والله .. وكتب لها الدواء .. ان الدواء غال يا سيدى.. ثمنه جنيه .. جنيه كامل وهذا الشهر شحيح .. شهر بارد . والرياح أكثر من العربات . . الرياح لا تدفع شيئا يا سيدى .. لقد وفرت ثمانية وثلاثين قرشا حتى الآن ..

ـ خذ أيها الرجل هذا الجنيه واشتر الدواء ..

ـ أدامك الله يا سيدى فى صحة وعافية .. انها بنت حلوة ستحبها ان رأيتها ..

وفتح عم بيومى عينيه فى ذعر على صرخات رجل .. وقفز حارس العربات من مكانه ..

أيها الحمار .. أين أنت ؟

ـ هذا هو انا ياسيدى .

كان صاحب العربة الفارهة .. رجل قصير ضخم . له رأس كبير .. وعينان تلتمعان بالسكر والغضب .. وتقف الى جانبه فتاة رقيعة من فتيات الملهى .. رآها كثيرا تذهب مع الرجال فى مثل هذا الوقت .

ـ اين فوانيس العربة يالص ؟

وكان لكمة قوية سقطت فوق رأس الحارس فافقدته الوعى .. فوانيس ؟. اى فوانيس ؟ . ماذا يقصد .. هل سرقت وهو نائم ؟ .. وأخذ يحملق فى العربة بذهول .. والرجل الضخم يعدو حوله ويلوح بيديه فى عصبية .

وتمتم : والله ياسيدى ...

ـ أين كنت ؟

ـ لم أتحرك من هنا ياسيدى، والله ..

ـ اذن كيف سرقت الفوانيس ؟ .

ـ لم اتحرك من هنا ياسيدى والله .

كان الرجل يزداد صخبا ويتحسس أماكن الفوانيس فى غضب .. ولم يعرف الحارس ماذا يفعل وقد تملكه الخوف ، وأخذ ينظر هنا وهناك لعل أحدا ينجده ويقف الى جانبه .. ليته يستطيع أن يعدو باقصى سرعة .. ويذوب فى الظلام .

والله لم أرها ياسيدى .

ـ اذن من سرقها .. أمى ؟

ـ والله ...

ـ ياعسكرى .. ياعسكرى .. لا بد أن آخذك الى القسم .

واخذ صوت الرجل يمزق صمت الميدان . وصمتت الرياح مرة واحدة وفجاة .. واخذت عينا الحارس تدوران هنا وهناك ولا تريان شيئا .. وأمسك به الرجل من جاكتته الصفراء .. واخذ يجذبه وراءه .

وخرجت الفتاة من صمتها وقالت للرجل :

ـ اتركه يا سنسن .. لا تعكر دمك .

وازدادت ثورة الرجل وقال :

ـ لابد أن آخذه الى القسم . . لم يسرق الفوانيس أحد غيره .. اللص .

ـ والله ياسيدى .. أخذنى النوم رغما عنى .. لم ار الفوانيس .

.. ووقعت عينا الحارس على رجل قادم فصرخ مستغيثا :

الحقنى ياعم والنبى .. ربنا يخليك .

وتجمع ثلاثة رجال آخرون على صوت الجلبة .. وحاولوا ان يتفاهموا مع الرجل الضخم الذى زاده السكر ثورة وغضبا . وازدادت قبضته على الجاكتة الصفراء تشبثا واصرارا .. وابتعدت فتاة الملهى قليلا ووقفت الى جوار العربة ترقب المعركة فى ملل وغيظ ، وانفلت الرجال يتفحصون الفوانيس ، ويقدمون الحلول والترضيات الممكنة .. ويستثيرون كرم الرجل واريحيته .. دون فائدة .

وقال أحدهم :

كم ثمن الفوانيس ؟ .. جنيه . .

اثنان .. افرض أن هذا المبلغ سرق من سيادتك .

ـ هذا الرجل مسكين ياسعادة البك .. وعنده أولاد .

قال الرجل بغلظة :

ـ لايهمنى ذلك .. القسم أو يدفع ثمن الفوانيس .

ـ كم ثمن الفوانيس ؟

ـ ثلاثة جنيهات ٠

ـ لا ٠٠ ليس ثلاثة جنيهات ٠٠ لن يزيد ثمنها عن جنيهين ٠

ـ ثلاثة جنيهات أو القسم ٠

ياسعادة البك ٠٠٠

ـ ثلاثة جنيهات أو القسم ٠٠ ليس لدى وقت لأضيعه ٠

قال احد الرجال :

ـ فلنذهب الى القسم ٠٠ لن يفعلوا له شيئا ٠٠ ثلاثة جنيهات ٠٠ انك تبالغ ٠٠ الرجل غلبان وليس له ذنب٠

كان بيومى صامتا ٠٠ تجذبه قبضة الرجل الضخم الهائج هنا وهناك ٠٠ والرجال الاربعة ثائرون كأن القضية قضيتهم هم ٠٠ وفى عيونهم الاصرار ٠٠ وتحرك الرجال خطوات ٠٠ وتلاقت أعينهم لحظة ثم قال أحدهم لزملائه :

ـمارأيكم يارجال ؟ فلندفع له المبلغ وأمرنا لله ٠

رفضت اعينهم الاذعان للرجل ٠٠ وتهامس رجلان ثم قالا :

ـ انتظر قليلا ياسعادة البك ٠

وتوقفوا جميعا ملتفين حول الحارس ٠٠ وواصل أحدهما :

ـ ان الرجل فقير ٠ ٠وصاحب عيال٠ وسندفع لك النصف ولتتحمل انت النصف ٠٠ هذا عدل ٠

قال الرجل باصرار وهو يهم بمواصلة الطريق الى القسم :

ثلاثة جنيهات أو القسم ٠

كور أحد الرجال قبضته وفكر فى أن يطوحها فى وجهه الضخم ويصرعه أرضا ٠

سأل رجل منهم الحارس :

ـ هل معك نقود ؟ ٠

هل يقول لهم لا ٠٠ هل سيكون كاذبا حينذاك ٠٠ ليس له الحق فى قرش واحد من قروش سميحة الثمانية والثلاثين ٠٠ انه يستطيع التنازل عن القروش القليلة التى ادخرها للايجار

وتمتم : نعم ٠

ـ أرنا كم معك ؟

ومد يده فى جيب الايجار ٠ واخراج قبضة من القروش واسقطها فى يد الرجل الذى أخذ يحصيها وقال :

ـ ثلاثة وعشرون قرشا فقط ٠

تمتم عم بيومى :

ـ ليس معى غيرها ٠

ـ كل واحد يمد يده فى جيبه يخرج مايستطيع يارجال ٠٠ لوجه الله ٠

ومد الرجال ايديهم فى جيوبهم ٠٠ واسقط كل منهم ما استطاع فى راحة الرجل : ثلاثة وعشرون ٠٠ ثلاثة وثمانون ٠٠ جنيه وثلاثة قروش ٠٠ جنيه ونصف ٠٠ ومنى نصف جنيه ٠٠ فيكون المجموع جنيهين٠٠ هاهماجنيهان ياسعادة البك واترك الرجل ٠

قال الرجل الضخم :

ـ ثلاثة جنيهات كلمة واحدة ٠٠ سأعرف كيف يدفعها فى القسم ٠

ـ ياسعادة البك ٠٠ جنيهان ٠

ومد عم بيومى يده خلال زراير الجاكتة ٠٠ وتحسست أصابعه طريقها الى جيب سميحة ٠٠

وأحس بيد ابنته تمتد من الجيب وتبعد يده عن النقود ٠٠ لا ٠٠ لا ياأبى سيأخذنى الى القسم ٠٠ يا ابنتى ٠٠انه مصر ٠٠ ووحش ٠ ٠وسأدفع الجنيهات الثلاثة هناك أو أحبس ٠٠ سأموت ياأبى سأموت ٠٠ انى انتظر الدواء منذ شهر السعال يمزق صدرى ٠٠ والدماء تلوث شفتى ٠٠ سيعوضنا الله ياابنتى ولير زقنا برزقه ٠ ٠لماذا تمتلىء عيناك بالدموع يا ابنتى ؟ ٠٠ وبرز وجه الطبيب من بين الكلمات ٠٠ وقال حازما :

اشتر هذا الدواء بسرعة ٠

هل أعود اليها وجيبها خال ٠٠ ماذا ستقول سميحة ؟ اليوم فى جيبك عشرة قروش يا سميحة اليوم فى جيبك واحد وعشرون قرش يا سميحة ٠٠ اليوم صارت ستة وثلاثين ٠٠ سأشترى لك الدواء قريبا يا سميحة ٠٠ ماذا سأقول لها اليوم ؟ ٠٠ هل سأقول لها لم يعد فى جيبك مليم واحد يا سميحة ٠٠ هانت يا ابنتى ٠٠ لا ٠٠ ما زال الطريق الى الجنيه طويلا ٠٠

مازال الطريق الى الشفاء طويلا ٠٠ كانت أصابعه تتلاحم٠٠ وتتقدم ببرود على تواصل الطريق وتنتزع من بين أصابعها الواهنة حق الدواء رغم الدموع ٠ ٠ أم تتكص وليكون مايكون ٠ ٠ يابنتى العزيزة ٠٠ أعدك وعدا صادقا سأشترى لك الدواء قريبا ٠٠ سأسأل جارنا قرضا مرة ثانية ٠٠ سأستعطفه ؛ وستأتى فى الغد مائة عربة وعربة ٠ ٠ وكل النقود ستكون لك ٠ ٠ ستكون للدواء ٠٠ صدقينى ٠٠ لن أستطيع أن أدفع لهذا الرجل ثلاثة جنيهات بمفردى فى القسم وسيحبسوننى ٠٠ وربما سحبت منى الرخصة ٠٠ هل يرضيك هذا ؟ ٠٠ لن ترينى اذا حبسونى فى فى القسم ٠٠ ولن أستطيع أن أراك ٠٠ أما فى الغد ٠ فستأتى مائة عربة وعربة بالتأكيد ٠ ٠وكل النقود ستكون لك٠٠ خذها يابى ٠٠ خذها ٠ ٠واصطدمت أصابعه بالقروش ٠٠ وافرغ قبضته فى يد الرجل وهو يقول :

ـ هذه نقود سميحة ٠٠ ثمانية وثلاثون

قال الرجل الضخم : من يفتشه يجد معه مائة جنيه على الأقل ٠

قالت فتاة الملهى فى غضب : لماذا كل هذا الاصرار ؟ ٠ ٠الرجل عجوز ومسكين ٠

قال الرجل :

أنا واثق انه هو الذى سرق الفوانيس٠

قال الحارس عم بيومى : والله لم أسرق شيئا ٠٠ كيف أسرق ولى ابنة مريضة ؟

وواصل الرجل : لابد أن نؤدبهم ونضعهم عند حدهم ٠٠ ولعل هذا يكون درسا نافعا ٠

وانفجر عم بيومى يبكى فجأة ٠

وازاح أحد الرجال قبضة الرجل الضخم بعيدا عن كتف الحارس ٠ وامسكت الفتاة بذراع الرجل وقالت :

ـ يكفى هذا ٠٠ يكفى هذا ٠٠ انه رجل مسكين ٠

لا يهمنى هذا ٠٠ انه لص ٠

قال عم بيومى : والله لقد أخذت حق الدواء ٠

قال الرجل الضخم وفتاة الملهى تدفعه أمامها : دعينى حتى آخذ حقى كاملا ٠٠ هذا اللص ٠

وصرخ الحارس : لست لصا ٠٠ انا لست لصا ٠

ـ أتسمعين ماذا يقول الآن هذا الحمار ؟

ـ لقد أخذت ثمن الدواء ماذا تريد بعد ذلك ؟

كان الرجال متوترين ٠٠ لف الرجل الضخم حول عربته ٠ ٠ وجلس أمام عجلة القيادة ٠

فتحت الفتاة باب العربة ومدت يدها بسرعة الى عم بيومى ٠٠ وأسقطت فى يده ورقة نقدية ٠٠ وهمست :

ـ خذ هذه الخمسين قرشا من أجل الدواء ايها الرجل

ـ لا يابنتى ٠٠ ابقيهم من أجلك ٠٠ غدا ستأتى مائة عربة وعربة ٠

ولكن قبل أن يقول أى كلمة كانت قد أغلقت الباب ٠٠ وانطلقت العربة ٠